مكتبة الشبيبة

١

دفعا كل الجهل

عبر وعظات في حكايات

وفكاهات مقتطفة من سفر

حياتنا اليومية ، ان اعرض

الناس عنها غاضبين فليرضوا

عن تلك الحياة ، ان هي

الا خير لهم وابقى حتى ينشأ

النشء الباء بدا !

محمود أحمد

المقدمة

١٥ نيسان ١٩٢٣

كنت اتمنى ان اكتب في كل يوم من ايامي كلمة بسيطة اضمنها ما اصادفه فيه من الحوادث تجري امام عيني . ولكن أني يتسنى لي ذلك ؟...

أجل فلولا ان نفسي السائمة المنقززة من الحياة ههنا تأبى ان تطلع القراء في الاقطار النائيـة ، عَلَى ما فينا من العيوب والنقائص الاجتماعية — خشية اعداء الحقيقة الالداء في هذا السواد — لكتبت منها ما كتبت حتى تفيض عن المجلدات .

اما مايراه القاريء فيما بين يديه من الوريقات الحقيرة المعدودة فهو قطرة من بحر . ولقد كتبت بكل حذر واحتراز ، ومع ذلك فلا يعجب البعض اذا قلت بانها ربما كانت هدفاً لسهام الطعنات واللعنات .

محمود أحمد

هياكل الجهل

١

— ﴿ الكتب ﴾ —

تركنا جيفة في الشرق فهجمنا
على جيفة في الغرب والخبز بين
ايدينا نعرض عنه ونحن جائعون !

(م . أ)

١٥ تشرين الاول ١٩٢٢

مررت ظهر اليوم بالمكتبة المصرية والمكتبة العربية ومكتبة الشرق ومكتبة الزوراء فألفيت على باب كل منها موزعاً من موزعي الصحف اليومية واقفاً يصيح بأعلى صوته : —

(الروايات الحديثة . الروايات المصرية . الرواية في آنين . جونسون . جونسون . طرزان . في ١٢ آنة) .

ثم نظرت فرأيت امام كل من هؤلاء اكداساً مكدسة من الروايات والحكايات وان شئت قل من الخرافات والخزعبلات ماشاءت المطابع وشاء المؤلفون .

اما الافندية فلا تسئل عن تزاحمهم وتكأكؤهم اللطيف عَلَى اولئك الباعة وتلك البضاعة — كيف لا ونحن في عصر النهضة العلمية الهوجاء !!!

***

بعد ساعة من الزمن كنت جالساً الى مكتبي منقبض النفس ضيق الصدر وانا افكر .

فكرت طويلاً ثم تناولت كتاباً كان عَلَى المنضدة امامي عليه هذا العنوان : (فن التأليف الحديث)

قلت افتحه لعلي اجد فيه مايريحني من هذا العناء الفكري .

فتحته وقلبت الورقة الاولى فالثانية ثم قرأت :

(لقد طفح الكيل وبلغت الروح الحلقوم ، وقام المنادي ينادي ان انبذوا تلك التآليف العتيقة بل تلك الكفائن البالية التي ورثتموها عن آبائكم واجدادكم . القوا بها عرض البحار . اطعموا معالمها . احجبوها عن الانظار . لقد اكل الدهر عليها وشرب ودب السوس في جلودها فما عادت تصلح لعصر النور والعرفان . ارخوا سدالاً كثيفاً عَلَى تلك الشروح والتعاليق الطويلة العقيمة ، وتعالوا معي القوا نظرة واحدة

الى عالم التآليف الراقية التي تدهش العقول وتلذ النفوس وترقى بالامم الى اوج الكمال . ولا عجب فمن بطونها خرج العلم الصحيح ومن ثناياها انبثق الادب الرائع وعلى اعمدتها بني الاختراع والاكتشاف بل من قلوبها انفجر نور الحرية والاستقلال) .

قرأت هذه العبارات قرائة حماسية شديدة وما انتهيت منها الا وصرخت قائلاً : —

ولقد طفح الكيل وبلغت الروح الحلقوم وقام المنادي ينادي ان انبذوا هذه التآليف الخرافية الجديدة من روايات بوليسية وقصص غرامية وحكايات خيالية اتتنا كالسيل من بلاد الافرنج .

نعم . انبذوا كل قديم عندكم . احرقوا كل الكتب البالية العتيقة . ولكن ابدلوا كل ذلك بشيء جديد خليق بكم صالح لحياتكم المقبلة .

اتركوا الخيالات وتمسكوا بالحقائق ثم اقرأوا او اقرأوا الكتب التي تعلمكم وتعلم ابنائكم طرق الحياة في جيل اليوم والاجيال الآتيات .

٣

— ﴿ النابغـة ﴾ —

احتكار التعليم مظلمة من
مظالم القرون الوسطى لن
ترقى الشعوب حتى تزول من
عالم الوجود .

(ج . ج . روسو)

آخر آب ١٩٢٢

فى ناد ضخم الاسم ضئيل الغاية والمبدأ ، اجتمع رهط من المتمدينين الجدد يتسامرون و يتحادثون باحاديث مختلفة متنوعة كانت كلها تدور حيال السياسة والعلم والشئون الاجتماعية وموضوع اكل لحم (زيد وعمرو) في آن واحد .

اخيراً جرت الالسن في مجرى الحالة العلمية فى المدارس العراقية ، فاخذ احدهم — واحسبه مديراً لمدرسة قروية — يشرح كيفية الامتحانات التى جرت منذ اسبوع واحد فاسهب فيها واطنب حتى كل وملّ فمل منه الحاضرون .

وبينما كان متمادياً في كلامه اذ بصوت رقيق يقاطعه ، فنظر واذا ذلك الشاب الظريف ، ذلك الموسر المترف ، ذلك الشريف النبيل يوجه اليه سؤالاً قائلاً : —

— هل سمعت شيئاً عن الامتحان الدخولي لطلاب مدرسة الحقوق الجدد ؟

— نعم . واني اعلم مقدار الناجحين منهم ايضاً .

— كم هو عددهم ؟

— اربعة عشر من اربعة وعشرين .

— أتعرف اسمائهم ؟

— لا ياسيدي .

فرنى الشاب الى الحاضرين باعجاب وغرور وقال مبتسماً : هل من احد منكم يعرف اسماء الناجحين ؟

فلم يجبه احد ولكنه استمر بحديثه العذب بعد ان دخل في طور الجد لا اللعب فقال :

(افندم) انا احد الناجحين ...

ثم سكت ولا اعلم لمَ لم يتم حديثه عن بقية اصحابه ؟

***

والبك الصغير هـذا هو خريج مدرسة ابتدائيـة ، قفز قفزة واحدة ترك بها المدرسة الثانوية وراء ظهره ثم تعلق بابواب مدرسة الحقوق — اهلاً وسهلاً بالقادم الكريم .

***

هو يحسب ان الدنيا لهو ولعب وان اكثر الجد هزل .

ابوه يحسب ان ولده نابغة .

الناس ينظرون ولا يرون .

والامس سيبقى هكذا تحت ستار مسدول . وسوف لا تمر اربع سنوات الا وتراه متربعاً على كرسي من الكراسي الفخمة العظيمة ، وامامه منضدة (البليارد) تتدحرج عليها الرؤوس .

رواية بنت القمر

— في السما —

— الليلة الاولى —

٢٤ ايلول ١٩٢٢

الصور تتحرك . والموسيقى تعزف . والناس يصفقون اعجاباً وسروراً .

يصفقون ولماذا يصفقون ؟

لان الابيض يهجم على الاسود . لان الغربي يدوس الشرقي بالنعال . لان ضابطاً اميركياً يحتقر حاكماً افريقياً .

نعم . ذلك هو البطل وهذا هو الوغد في هذه الرواية السناوية . هكذا اراد مؤلف الرواية ، وهكذا ارادت شركة السنما ، وهكذا كان . اما انتم ايها الشرقيون فلماذا تنظرون ولا تفقهون ؟ ولماذا تضحكون على انفسكم ثم تسخرون منها وتهزأون ؟

— الليلة الثانية —

١٨ تشرين الاول ١٩٢٢

الآن عدت من السنما وانا — ايها القارئ — أرتجف

ارتجافة العصفور بلله القطر ، واعصابي اختل نظامها الي درجة اكاد افقد بها الاحساس والشعور .

الآن عدت من السنما وانا اتذمر واصخب والمن طول الطريق ولكن أيجديني ذلك نفعاً ؟

كانت الصور — كما كانت قبل ايام — تتحرك امام انظار الناس ، والموسيقي تعزف بالحانها الشجية فتشنف مسامع الناس ، والناس يصفقون اعجاباً وسرورا .

كنت في مقصورة انا واثنان من رفقائي ، ننظر الى الصور تارة والى النظارة تارة اخرى ، فلا نرى ولا نسمع الا ما يضحك وما يبكي ، والا ما يجلب الهزؤ والسخرية والحزن والاسف الشديد .

سكتنا وسكتنا حيث صفق الناس ، ثم صفقنا في مشهد مهول كان السكون سائداً فيه فأوجب ذلك الى حدوث الاستغراب بل الهزوء والسخرية المرة من الجمهور .

صفقنا ولم صفقنا ؟

صفقنا لان اولئك الافريقيين (سود الوجوه) قد ناضلوا (بيض الوجوه) الى آخر نفس ودافعوا عن اكواخهم وخرائبهم الي آخر رمق من الحياة .

٦

السيدة ١١١

رواية تمثيلية حقيقية

(ريئاليست) في

فصل واحد .

(يرفع الستار عن سيدة جالسة على كرسي ضخم عليها آثار النعمة والترف ، وتبدو على محياها مظاهر العظمة والكبرياء ، وامامها فتاة فقيرة ترتدي اطماراً بالية ، واقفة وقوف الذل والانكسار ، ومن كلامها يظهر انها طالبة الاستخدام في منزل تلك السيدة الارستوقراطية) .

السيدة

والآن .. انت تطلبين الاستخدام في بيتي المحروس !!

الفتاة

نعم سيدتي .

السيدة

ما إسمك ؟

الفتاة

سعاد .

السيدة

ماذا ؟ ماذا تقولين ؟

الفتاة

اسمي (سعاد) ياسيدتى .

السيدة

سعاد ! سعاد ! ان هذا اسم لايليق ان يكون لخادم مثلك ابداً . ولو فرضنا انك دخلت فى خدمتى فلا يجوز لك المحافظة على هذا الاسم . والافضل ان نسميك (عمشة)

الفتاة

لك الامر والمشيئة .

السيدة

من اية مدينة انت ؟

الفتاة

لست من اهل المدن . انما انا من قرية من قرى البصرة

السيدة

(تتكلم باستخفاف)

ماشاء الله ! اسمعي اسمعي ياهذه : انني اكره القرويات كرهاً شديداً لانهن لا يكن الا قذرات لا يصلحن لخدمة البيوتات .

الفتاة

لا ياحضرة السيدة انني لست ممن تذكرين .

السيدة

سيتضح لنا ذلك .. كم يبلغ عمرك ؟

الفتاة

٢٥ سنة .

السيدة

(تتكلم بغلظة)

ماهذا ؟ هل تكلميني هازئة بي . انا لا اريد منك جواباً كاذباً ابداً .

الفتاة

حاشا حاشا ان اسخر منك او اهزأ بك . بل ارجوك

ان تتأكدي من صحة قولي . واذا كنت قد رأيت في وجهي بعض التجاعيد فانما هذه آثار المرض لا آثار الكبر .

السيدة

وي . وي . هذه مصيبة اخرى . افتحي عينيك يا سيئة الحظ . انني لا اقبل في بيتي امرأة مريضة ابداً .

الفتاة

(تتكلم بخجل)

عفواً سيدتي . انني كنت كذلك قبل مدة اما الآن فقد شفيت والحمد لله على العافية .

السيدة

هذا امر تعرفينه انت .. دعينا الآن منه .. اعلميني : ماذا تعرفين من اشغال المنزل ؟

الفتاة

اعرف كل شيء من امور تدبير المنزل مع الخياطة ايضاً .

السيدة

نريد تربية دجاج وطيور داجنة . هل لك المام بهذا العمل ؟

الفتاة

لا اخال ذلك داخلاً ضمن وظيفتي ٠

السيدة

(تتكلم بشدة)

ان وظيفتك هي كل ما تأمرك به ربة البيت ٠

الفتاة

ولكن ٠٠٠

السيدة

ولكن ٠ ولكن ٠ اني لا اعرف معنى هذا الكلام ٠ اعلمي بانه يجب ان يكون من جملة وظائفك كنس البيت ورشه مع تنظيف السلم وغرفة الاكل وغرفة النوم ٠ ثم دلك حلقات الابواب ومساميرها « البرونزية » البارزة ٠ وعلاوة على ذلك تنظيف زجاج الشبابيك كل يوم وكذلك غسل الملابس مع الكوي والخياطة والتطريز اذا امكن ٠ ويجب ان تراعي في كل هذه الاحوال النظام ٠ اجل النظام قبل كل شيء ٠ ثم لتعلمي باني امرأة اكره الاسراف والتبذير وعليه ينبغي عليك اذا احتجت الى شيء ان تطلبيه مني لاني سوف لا اسلمك المفاتيح ٠٠٠

الفتاة

(تتردد قليلاً ثم تقول)

(١٥) ربية . أيرضيك هذا المقدار ؟

السيدة

ولا (آنة) يكفي الكلام .. أخرجي .. أخرجي .

الفتاة

(تخرج)

السيدة

(تودعها قائلة)

الى جهنم يا ابنة الكلب . انا لا اقبل عاهرة من امثالك في بيتي . الله يحرسه و يحرس ابنك !!!

٥

الشاب المتمدين

٢٩ مايس ١٩٢٢

رجعت الى داري وانا افكر بعدئذ مع ذلك الشاب المتمدين المتظاهر بالثراء والجاه ، حول موضوع الاشتراكية ، حيث سئلته عنها وعن تعريفها فاجابني باعجاب وغرور :

انا عالم بها مطلع على كتبها ومؤلفاتها واستطيع ان اعرفها بكلمة وجيزة .

ثم سكت قليلاً وعاد الى كلامه قائلاً :

الاشتراكية بخار الفقر

***

حاولت ان افهمه انه لم يكن اول واضع لهذا العنوان بل هو مقتبس من كتاب للشيخ مصطفى المنصوري نقلاً عن بعض المصريين ، ولكن دافعاً دفعني الى السكوت فسكت .

***

الفتاة

(تنظر بحيرة ودهشة ولا تتكلم

السيدة

كم يجب ان يكون راتبك ؟

الفتاة

« ٢٠ » ريبة .

السيدة

(وهي تصرخ)

وي ! عشرون ريبة . هل انت مجنونة . نحن كنا نعطي للخادم سابقاً ثمانين غرشاً اي « مجيدي » واحد فقط . فهل من نسبة بين هذا الراتب وما تطلبين ؟

الفتاة

الامس مضى . وحالتنا اليوم لا تشبه الحالة بالامس . ثم انى كنت لحد الآن مستخدمة براتب « ٢٠ » ريبة ...

السيدة

يا سيئة الحظ . تستطيعين الآن ان تستخدمي عند اولئك الذين كانوا يستخدمونك بذلك الراتب .. يكفي الكلام .. تفضلي .. الباب واسعة .

انقضت تلك الساعة معه وانا على أحر من الجمر وكلما حاولت فراقه والرجوع من حيث اتيت ، يتمسك باطراف ثيابي ويقول :

ساعة اخرى . بالله عليك . تعال نذهب ننظر الكتب الحديثة القادمة من مصر في بريد اليوم .

صبرت . ثم مشينا الهوينا حتى وصلنا سوق السراي فانصعنا الى المكتبة المصرية ، ودخلنا الباب مسلمين ، فاقبل صاحبي على الكتب وانشأ يقلبها كتاباً فكتاباً ، ثم مثل الكتبي عما جاءه من نفيس المؤلفات ، فناوله كتاباً كتب على غلافه بحرف عربي جلي : (مذكرات بغي) .

قرأ هذا العنوان ثم قال متعجباً : ومن هو بغي ؟ لعله من عظماء الاعجام ؟ انا سمعت بمذكرات لويد جورج ومذكرات غليوم ومذكرات مدام اسكويث ومذكرات هندنبرج ولكني لم اسمع بمذكرات هذا الرجل وعلى ما يظهر انه ليس من المشاهير فلا اهمية لمذكراته . اه

يا للعجب ! يا للفضيحة ! يا للجهل !

لقد علا الضحك ، وكثر تهامس الناس من حولنا من

اجل هذا الشاب المهذب ، وهذره وهذيانه ، لا بل من سعة اطلاعه على لغة آبائه واجداده ...

***

وبينا نحن في موقفنا هذا اذ تناول كتابًا آخر بيده اليسرى واشار الى عنوانه باليد اليمنى ووقف كخطيب خطير يتكلم و يقول :

هذا كتاب اشهر من نار على علم . هذا كتاب (الناشئة) للفيلسوف « شارل وانير » . جمع فيه حكم الاولين والآخرين . فيه خلاصة الفلسفة الحديثة . الى رأيته وقرأته من ذي قبل . والآن اوصي كل شاب ان يقتنيه و يقرأه بامعان . اه

فعجبت من قوله وجئت الى جانبه لاراه ففتحه وقرأ منه ما يأتي : —

الاشتراكية : بالمعنى الذي يفهم من اللفظ هي تثبيت دعائم الحياة الصحيحة الراقية ومبادئ التضامن العام واحترام الحرية الشخصية وربط الفرد بالجماعة ارتباطًا يكون به لهم و يكونون له .

ومن مبادئها الاهتمام بشئون الناس عامة وعلى الخصوص بالضعيف والطفل والمرأة ثم بالمحتاج والمنكوب والمتألم والمظلوم .

ومنها اعتبار ما يؤدي من الخدمات في هذا السبيل كأنه اللانسانية عامة . ومنها ادراك حقيقة العلاقات التي تربط الفرد الى الجماعة وهذه الى الهيئة الاجتماعية كافتها ، والجميع الى ادوار التكون الاجتماعي . وكذلك العناية بكل ما يفضي الى تحسين احوال الحياة والي ازالة الخصومات من بين المختلفين والاحقاد من قلوب الناس . اه

الى هنا وقف صاحبنا وقوفاً قسرياً وحرن حماره ، وقد امتقع لونه وسقط الكتاب من يده عَلَى المنضدة .

فصرخت من فوري :—

بخار الفقر ! هذا بخار الفقر !!

اما هو فاطرق الى الارض وعلاه احمرار الخجل ثم اضطرب في مكانه . وما ادرت نظري الى الحاضرين الا ورأيتهم كلهم يوجهون الينا نظرات التعجب والاستغراب .

عدت اتشاغل بالكتب المرصوفة امامي ، وما هي الا برهة قصيرة حتى التفت الى صاحبي . ولكن اين صاحبي ؟

— هرب وغول الجهل يعدو ورائه .

٦

الذئب البشرى (١)

ايه ايتها الانسانية ! بينما
انت معذبة هناك في الجسم
الذي تتعذبين فيه ، اذا
بك ههنا تتعذبين في جسم
المرأة ، في دور الزواج .

(م . أ)

حدثني رفيق من رفقائي ، قال :—

كانت الفتاة النبيلة « س » قد وقعت في شرك الهوى عفواً فاحبتني ثم عشقتني واصبحت مغرمة بي غراماً فاق غرام ليلى بمجنون . اما انا فكنت احبها حباً لم يصل الدرجة التي وصل بها لديها ولكني اقدر ان اسميه : حب الرحمة والحنان .

لم التق بها ، ولم اكلمها بشيء غير ان الصدفة جعلتها ترافق مرة اعقبها كل ذلك .

---

(١) نشرت في غير هذا المكان خطأ .

كتبت لي بصورة سرية تارة تشكو بثها وتارة تعرض عدم اصطبارها واخرى تطلب التلاق ...

صبراً صبراً . لا تتسرع في الظن فانها ارادت التلاق ولكن بالزواج الشرعي .

مسكينة هذه الفتاة . فقد ظنت ان الشرع امر يمضي حكمه عَلَى كل شيْ في الوجود ولم تدر بان هناك ما هو اعظم منه واكبر الا وهو سلطان القوة والجبروت .

لم اكن مستطيعاً على اجابة طلبها ذاك بل ولا قادراً عَلَى التكلم به بوجه من الوجوه لانها ابنة ذلك الشريف العظيم ، وانا ذلك الشخص الـ ...

***

آن اوان مساق النعجة الى مذبحها او قل جاء وقت زواج تلك الفتاة فزفت الى شاب من اعيان المدينة لم تكن لها او لاهلها علاقة معه تستوجب ذلك سوى انه امهرها الفاً من الليرات .

استغاثت الفتاة ما شائت ، وبكت ما استطاعت على البكاء ولكن لا مشفق ولا راحم ولا سامع ولا مجيب .

بعد ان اخذ ذلك الذئب الخاطف او ذلك الذي يزعمون

انه زوجها عصمتها بثلاثة ايام اصبحت واذا هي مختلة الشعور ذاهبة العقل تهذي وترغى وتزبد وتشق ثيابها الى غير ذلك مما يأتيه كل مجنون .

وما افلت شمس ذلك النهار حتى ادخلت غرفتها لا بل محبسها مقرنة بالاصفاد كأنها جائت لتقوم مقام اولئك المجرمين فيما يستحقونه من العذاب .

***

كنت جالساً — في احدى القهوات — الى جانب صديق من اصدقائي اتكلم معه عن تلك الشقية البائسة ، ولم افوه باسمها حتى وقعت عليّ ضربة شديدة من ورائي آلمتني جداً .

قمت مرتجفاً ارتجافة الغضب ، وقد رفعت كرسياً لاضرب به الضارب واعتدي عليه مثلما اعتدى عليّ ثم التفت واذا زوج تلك الفتاة واقف يتمايل من شدة السكر وهو يقول :

أتتكلم على زوجي « د س » ؟

فار بجسمي دم الانتقام فوقفت اثار لي ولها من ذلك الطاغية الغشوم . وفي التو واللحظة عاجلته بضربة وثانية وثالثة حاسباً اني اقضي على جرثومة من جراثيم هذا المجتمع . ولكنني

لم استطع على اجراء تمثيلي هذه اذ هجم عدة رجال واظنهم من خدمه وسدنته واعوانه فاقبلوا علي بالضرب والطعن ، وهم يظهرون للناس انهم ينقذون الرجل من يدي كأني انا المعتدي عليه .

قتلني الغضب والحنق ، واردت ان اتحرك حركة حركة واحدة اثأر لي بها من ذلك السيد النبيل ، ولكن اني يتسنى لي ذلك وبيني وبينه اسوار من فولاذ : المال والقانون والهيئة الاجتماعية ...

— اذن أأقتل نفسي ؟

— لا . اصبر لعل الزمن ينقلب .

***

كنت كلما اخرج الى الاسواق ، وامر من بين الناس ارى العيون ترمقني والافواه تتكلم عني ، ولكن بماذا ؟

انهم كانوا يقولون « انظروا ، انظروا الى ذلك المسكين ، ذلك الذي لم يملك حده و يقف عند قدره ، فتعرض او تحكك بمن هم اعظم منه ومن اهل المدينة شرفاً وقدراً فلاقى جزائه ، يستحق ذلك واكثر » .

ثم اسمع بل اذني الضحك ، وكلمات الهزؤ والسخرية ، والسباب والشتم فالوي عنهم وامضي لشأني .

اخيراً فررت من هنا ، ولم يمض علي الشهر حتى وصلت المحل الذي اردت الوصول اليه .

بقيت هناك بعيداً عشرة اشهر صرت علي مر السنين ثم رجعت فوليت وجهي شطر البلاد التي طردتني .

حللت ههنا ، وانا اسئل في السر عن تلك الفتاة .

— اين الفتاة ؟ ؟ اين هي الفتاة « س » ؟

— هناك بين سكان القبور .

مكتبة الشعبية

٢

القلم المكسور

النفس طموحة والدماغ مفكر.
لكن القلم مكسور لم يستطع ان
يرسم لها من صور غير التي بين
دفتي هذا الكتيب الصغير.

محمود أحمد

المقدمة

١٧ مايس ١٩٢٣

كل منا له نظرة : نظرة في المجتمع . نظرة في المحيط المحدود . نظرة في المجتمع الصغير . نظرة في البيت ونظرة في الكوخ الحقير . الا ان من يمعن بتدوين هاتيك النظرات قليل ، واقل من القليل .

***

الكتيب الذي بين يدي القارئ : مجموعة صغيرة — صغيرة جداً — لبقايا سلسلة طويلة مضمحلة من نظراتي اليوم . امل ان تجد لها حيزاً في نفوس عشرة قراء من شبيبتنا ، وكفى .

محمود أحمد

القلم المكسور

١

— آراء وأفكار —

لست أخشى تخطئة الناس لي
اذا كنت اعرفني مصيباً ولا
يسرني تصويبهم لي اذا كنت
اعرفني مخطئاً .

(شبلي شميل)

ان الادبيات الخيالية ، والعلوم الكلامية التي سادت على المجتمعات البشرية قد وقفت عند حدها وربما قرب اليوم الذي تبتدئ فيه بالتقهقر سريعاً .

حينذاك ينصرف الانسان الى العمل والجد في سبيل السعادة الفائقة والحقيقة المنشودة .

***

لا تستريح البشرية المعذبة من آلامها التي انهكت قواها منذ القدم ، حتى تقلب أنظمتها وقوانينها رأساً على عقب

فيحل محلها النظام الطبيعي الذي سنجده امامها — حتماً — بعد ذلك .

***

« كل حركة تقاوم بمثلها » . هذه قاعدة يجب ان يعلمها البشر جيداً ، فلا يحاول ان يقاوم التيار الفكري بالنار والحديد . بل — اذا اراد — فليوجد تياراً فكرياً ثانياً يضعه أزاء الاول في معترك الحياة . حينئذٍ يرى كيف يسقط الفاسد . و يثبت الصالح الصحيح .

***

من المضحك ان نرى ان ماساد وقدس في الحياة الدنيا منذ عصور ، من الاعتبارات الخيالية والمالية ، يكاد يسقط اليوم نصف سقوط ، وغداً سقوطاً هائلاً لا قيام له من بعده الى يوم يبعثون .

***

العمال عليهم قوام الحياة ، والكسالى والمتقاعسون هم الجراثيم التي يجب ان تباد .

٣

— ﴿ الحكمة العجوز !!! ﴾ —

اذا كان في نيتكم يافوم ان
تنهضوا ، فاهدموا بنائكم القديم
المتداعي الاركان بدلاً من
الترقيع والترميم ، واقيموا بعده
صرح نهضتكم الجديدة التي
ترغبون .

(م . أ)

كانا متذمر . كانا متألم ، من انحطاط الاخلاق وفساد العادات . وكانا يريد ان يصلح ، فيصرخ و يصيح و يكتب حتى يبح صوته و يكل قلمه ، فيعود ادراجه ، تخفق على رأسه الوية الخيبة والاخفاق : لا احد سمع ، ولا احد اجاب ، ولا اخلاق صلحت ، ولا حدث اي شيء .

والسبب الاكبر ، بل العامل الوحيد في ذلك هو لان الفساد لم يحدث قبل ساعة حتى يزول بساعة ، ولكنه قد كان

حادثًا منذ عصور فاخذ مكانه من دماغ الشعب وحل محله من نفوس الناس اجمعين . فلا مبدل له ولا مغير حتى تتخذ العدة سريعًا لقلع هاتيك الشجيرات الخبيثة من الادمغة والنفوس وبذر بذور صالحة غيرها وهكذا حتى تدرك الغاية ويتم الامر .

***

ان اخلاقنا وعاداتنا اليوم هي البقايا الباقية لحالاتنا الاجتماعية الاولى المستفادة — في كل اطوارنا التاريخية — من علومنا الكلامية ونظراتنا الفلسفية في الكون .

ففسادها اليوم وانحطاطها لدليل كبير ساطع على فساد تلك العلوم وانحطاط هاتيك النظرات .

***

قلب اي كتاب من كتبنا تجد الحكمة القديمة شاخصة بارزة فيه ، وانك لا تلبث ان تمعن النظر حتى تجد امامك عجوزاً شمطاء واقفة على حافة القبر . وازائها جماهيرنا وجموعنا يسجدون لها و ينظرون اليها كالمجانين ، ولا ادري ماذا يريدون منها ولماذا لا يتركونها وشأنها فتندحر قهراً وتموت .

ان هذه الحكمة العجوز هي التي علمت اجدادنا ولازالت

تعلم الاحفاد ماملأوا به المجلدات الضخمة من الكتب والمؤلفات ، فراحوا يحملونها على رؤوسهم وما وجدوا معترك الحياة حتى غلبوا عَلَى امرهم وسقطوا سقطة الابد .

***

تناول كتاباً من هاتيك الكتب تجد عَلَى صدره هذه الكلمة :

(القناعة كنز لايفنى)

اي مت ايها الشعب فقراً وجوعاً واقنع بما انت عليه ، لان القناعة — يامسكين — كنزك الذي لايفنى في الحياة .

ثم تناول كتاباً ثانياً تجد على صدره هذه الكلمة :

(رب كلمة سلبت نعمة)

اي اسكت ايها الشعب اذا غصب منك حق او انتهكت لك حرمة ، فرب كلمة تقولها تسلب منك نعمة ، ولعمرى أبعد هذا ذل وصغار .

ثم تناول كتاباً ثالثاً تجد على صدره هذه الكلمة :

(جانب السلطان واحذر بطشه . لاتخاصم من اذا قال فعل) .

(تقبيل اليد القوية خير من مشابكتها) . (قول الحق لا يدع للانسان صاحباً) .

ولعمرك ايها القارئ ليس بعد هذه (الحكم) ولا ابلغ منها فعلاً في اذلال النفوس وقهرها واضعافها وانحطاط اخلاقها ابداً .

❁❁❁

كفى كفى صبراً ايها الاحرار . اذا كان فيكم من يشفق على هذا الشعب المسكين و يرثي لحاله فليغيروا غارة شعواء على تلك الحكمة العجوز التي صارت اليوم دينًا للناس . وليمحوها من عالم الوجود فان اهملتم الامر اليوم وتراخيتم فيه او حاولتم الاصلاح من طريق آخر فانكم لخاسرون .

اذا كنتم ناهضين حقيقة فاهدموا قبل كل شئ بنائكم القديم المتداعي الاركان ثم ابنوا بعد ذلك صرح نهضتكم الجديدة الممرّد ، ليقوى على الوقوف في لج الحياة في الايام الآتيات .

٣

— ﴿ المعرك الادبى ﴾ —

اننا نحن ابناء العصر الجديد
مقفى علينا حتماً باتباع خطوات
الغرب واقتباس ماعنده من
الاخلاق والآداب والعلوم . .

(م . أ)

مامضى على الشرق ردح من الزمن تمتع به في بحبوحة الحضارة والتمدن ، الا واخذت دولته تذبل شيئاً فشيئاً ، فنهض الغرب لتشييد دولته الجديدة على انقاض تلك التى اخذت تتقلص وتزول .

مرت القرون وتعاقبت العصور ، والغرب سائر في طريقه حتى اذا ماداتت الساعة الموقوتة ، اخذت طلائعه تتقدم وتقترب من ابواب الشرق ، بغية الولوج لتنفيذ الخطط التى — كما يزعمون — تقضى بنشر ماعنده من شتى العلوم ، ومختلف الفنون ، ومتنوع الافكار الراقية في العالمين .

تم الامر واستتب لنا ولهؤلاء القادمين ، فاخذت تعاليمهم تنتشر في آفاق بلادنا وربوعنا انتشار البرق في آفاق السماء ، وكان المنتظر ان نتهيأ لنكون مثلهم أعني نظرائهم في يوم من الايام ، الا انه سرعان ما خابت الآمال وطاشت سهام الظنون .

اننا بدلاً من ان نسعى لنخلق ونوجد لنا مدنية كمدنيتهم وحضارة كحضارتهم وعدة كعدتهم في المجتمع الانساني ، اذ بنا ونحن في مقاعدنا نهيم في اودية الخيالات والضلالات .

ان نظرة واحدة الى الطبقة « التي تحسن القراءة والكتابة » منا تكفي لان نعرف منها مبلغ بعض الآراء والتعاليم الغريبة السقيمة الراسخة في اذهان القسم الاعظم منهم . و يعلم الراسخون في العلم ماذا تحتوي عليه تلك التعاليم المأخوذة عن بعض فلاسفة الافرنج — لا كلهم — من احتقار الشرق والجنس الشرقي احتقاراً لا غاية من ورائه الا تبرير تلك « العمليات » الهائلة التي يقوم بها دكاترة الامم والشعوب .

***

هذا (سر تطور الامم) كتاب جوستاف لوبون احد غلاة

الوطنية الافرنجية ومن كبار اقطابها ، افتحه واقرأ ما كتب في الصفحة الـ ٤٢ منه تجد ما يأتي :

« يجوز ان يحرز احط الافراد في سلم الانسانية جميع معلومات الاوروبي كلها بما قد يوجد فيه من قوة الحافظة التي اختص بها الافراد الادنون وليست هي من ميزات الرجال ، ومن المسلم ان نيل الزنجي واليابانى الشهادة الثانوية او رتبة المحاماة امر ميسور ولكنه لاينال بذلك الا طلاء سطحياً لاتأثير له في مزاجه العقلي .. .

ولذلك الزنجي او هذا الياباني ان ينال جميع الشهادات الممكنة لكنه لن يرقى مطلقاً بذلك الى صف الاوروبي العادي . ففي عشر سنين يمكن تلقينه التعليم الذي يتلقاه انكليزي تام التهذيب ولكن الف سنة قد لاتكفي لصيرورته انكليزياً حقيقياً اعني رجلاً يعمل كما يعمل الانكليزي في جميع اطوار الحياة » الخ .

***

اما صاحبنا يساوي بين الزنجي واليابانى الراقي المتمدن ،

ثم يقول بان الاخير مهما رقى في سلم العلم لايستطيع ان يكون رجلاً يعمل كما يعمل الغربي .

انني لا ادري وايم الحق هل يحتاج هذا الى رد وهذه امة اليابان — امامنا — اصبحت تعمل كما يعمل الغربيون ، وهي تحاول ان تتفوق عليهم وهم واقفون لها بالمرصاد .

وبعد فان كانت الجنسية الشرقية هي العامل الوحيد في جعل اليابان الراقية ، بهذه الدرجة من الانحطاط يعرف اهل الغرب ، فعلينا اذن نحن ابناء هذه الاقطار السلام !

***

اجيبونا اجيبونا يا ايها الساكنين يا خفافيش الفلاة في بلادنا على اية قاعدة من قواعد العمران تريدون ان تشيدوا عماد رقيكم ، وفي اية طريق من طرق الحياة المدنية ترغبون ان تمشوا بامتكم ، والى اي حد من حدود التكامل والارتقاء تحاولون ان تصلوا بجماهيركم الشرقية ، وانتم مهما جاهدتم وسعيتم ومهما ارتقيتم حتى ولو تعلقتم باهداب السحاب وناطحتم الجوزاء فلا تكون منزلتكم بنظر هذا النوع من الغربيين الا كمنزلة اليابان التي يساوى بينها وبين الزنوج والوحوش من الافريقيين ؟

اجيبونا اجيبونا يا ايها المساكين يا خفافيش الفلسفة في بلادنا اي شاب من شبانكم واي ناشئ من ناشئتكم الحديثة يقرأ امثال تلك الكتب المملوءة بهذه التعاليم المموهة بطلاء الفلسفة والعلم ، ولا يرسخ في فكره ويتمركز في دماغه انه منحط بطبيعته منحط بخلقته منحط بمزاجه العقلي انحطاطاً لا يتبدل ولا يتغير حتى ولو سبقت امته امة اليابان التي تضاهي امم الغرب بالمدنية والرقي المادي والمعنوي بل انحطاطاً ابدياً لن يرتفع عنه حتى تبدل الارض غير الارض والسموات .

ألا يا ايها المساكين يا خفافيش الفلسفة في بلادنا اجيبونا اجيبونا اذا كان حقاً مايقوله جوستاف عن اليابان من انها مهما ارتقت وتمدنت هي والزنوج الوحوش على حد سواء لانها ليست من امم الغرب (اعني لانها شرقية) فماذا نحن عاملون بعدئذ ؟ وماذا نحن منتظرون من الايام ؟ وماهي غايتنا من الحياة ونحن بالطبع متساوون مع اليابان بالجنسية الشرقية ؟

***

اننا نحن ابناء العصر الجديد مقضي علينا حتماً باتباع خطوات الغرب واقتباس ماعنده من الآداب والاخلاق

والعلوم ، ولكن يجب ان يكون كل ذلك محوراً محولاً مصبوغاً بصبغة جديدة بنا خليقة بحياتنا الاجتماعية المقبلة لا ان يضعنا في موضع ماخلق لنا ، او ينـزينا مكاننا الحقيقية في المجتمع الانساني او يسقطنا — بعبارة اوضح — الى منزلة القردة والوحوش .

يجب علينا قبل كل شئ ان نفتح اعيننا ، فنكف عن الركض وراء امثال جوستاف ومن على شاكلته ، والانخداع بما يسودونه على اوجه الطروس باسم الفلسفة والاجتماع خدمة لاغراضهم الوطنية ومصالحهم القومية في العالمين ، فان في الغرب كثيراً — غير هؤلاء — من العلماء والفلاسفة لهم من الآراء العلمية والافكار الاجتماعية ماتكفي لان تكون لنا منهاجاً قويماً ونموذجاً حياً للحياة التي نتطلبها بعد انقضاء الاجل المحتوم : اجل النهضة الحديثة التي ظهرت بوادرها اليوم .

٩

— ﴿ ادب اليوم ﴾ —

يجب ان ينبغ فينا كتاب في العلم والاجتماع قبل الشعر والخيال . ويجب ان يقرأ الشعب كتب الحقائق العلمية قبل السفسطات والخياليات .

(م ١٠ أ)

دوى دوي في الارض ، وقامت حوالينا ضجة بلغت عنان السماء . قالوا : نهضة . قلنا : عسى ان تتحقق الآمال . قالوا : نهضة علمية . قلنا : وما ذلك بالامر اليسير . قالوا : نهضة ادبية . قلنا : مكانكم . هذا امر يجب النظر فيه قليلا .

***

ظهرت الجرائد ، واذا في صدر كل واحدة منها قصيدة خيالية لشاعر قديم او النشودة تصويرية لشاعر جديد .

انعقدت النوادي ، واسست المحافل ، واذا على كرسي كل

واحد منها شاعر متحمس يلقي قصيدة وطنية ربما كانت — ان لم اخطئ الثخمين — اطول قليلاً من يوم الجوع ·

اقيمت الحفلات تلو الحفلات ، في استقبال امير او وداع امير ، واذا عَلَى رأس كل حفلة ادباء ما اندرهم لو كانت الساعة غير ساعة السجود في هيكل العظمة والجبروت ·

مات شيخ كان يحمل وساماً من اوسمةِ الشهرة والصيت واذا على حافة قبره شعراء ربما بلغوا الاربعين ، يتسابقون في مضمار الرثاء والتأبين ·

حينذاك قامت الضجة الكبرى ، ودوى الدوي الهائل ، وسط تصفيق المصفقين ، وهياج المعجبين من الناس · ثم وقف المنادي ينادي : هذه نهضتنا في القرن العشرين ·

***

أيه يا اخواننا ! أغثيثموا انفسكم · أفيقوا · ما هذه نهضة ، ولا هي خطوة كبرى في سبيل النهوض الحقيقي ·

لقد تلاشت الكلمات الشعرية اللطيفة في الفضاء ، وهربت من الافواه الى عالم الخيال الذي اخرجت منه قسراً · وغدا كل شيء كما كان ·

كفى كفى . كفانا هذا فلنفيق . ان الشعب أمي يجب ان يتعلم الالف والباء . ان الشعب جاهل يحتاج العلم الصحيح ، وان الشعب جائع ايضاً ، يريد خبزاً وانتم تقدمون له فاكهة ، وفاكهة في غير اوانها ؟

هذه كلمة اقولها وبودي ان يكون لها وقع — ان حسناً وان سيئاً — في النفوس . والا فان بقي الجاد هازلاً دون ان يشعر بنفسه ، والضاحك باكياً والباكي ضاحكاً عن غير ما سبب يوجب الضحك والبكاء ، والمادح راثياً عند المدح والراثي مادحاً عند الرثاء ، كل ذلك بلغة يسمونها لغة الشعر والادب ، فقل اننا جماعة من الناس ابتلينا بمرض الهستريا ، يجب نقلنا الى مستشفى المجاذيب .

مهلاً مهلاً . سادتي لا تغضبوا . لست بماس نهضتنا الجديدة بسوء ولكن اجيبوني : أتريدون ان نقول ان النهضة الادبية الحقيقية هي ان يقوم شاعر منا فيعصر دماغه عصراً ليقلد شاعراً قديماً من شعراء الظرافة والخيال ، في عمل ديوان خيالي يجب ان يكون فيه ثلاثة آلاف بيت من الشعر او يزيد ؟

أو بدون ان نقول ان النهضة الادبية الحقيقية هى ان يقوم شاعر منا ، ينبش دواوين الشعراء الغابرين نبشاً كما ينبش النباش القبور ، فيأتى بعظام كل بيت نخره السوس ، فيمسخه مسخاً ، ثم يؤلف منها القصائد الطوال العراض . ولا يخجل من نفسه — ان لم يخجل من الناس — ان يأخذ — مثلاً — من الاغاني قول بشار بن برد وهو يمدح بده للسؤال :

اطلت علينا منك يوماً سحابة
اضائت لنا برقاً وابطا رشاشها
فلا غيمها يصحو فييأس طامع
ولا غيثها يهمى فنروي عطاشها

فينشره محرفاً هكذا :

اطلت على قطر العراق غمامة
اضاء لها برق وابطا رشاشها
فلا هى تستجلى فييأس طامع
ولا هى تستهمى فنروي عطاشها

***

شعراؤنا الحقيقيون — اليوم — لايتجاوزون عدد اصابع اليد ، وهذا مقدار كاف عَلَى رأي البعض . وفي رأيي هم فوق حاجتنا . اما (الكمية الباقية) فخير لهـا ان تنصرف الى ما هو اهم لحياتنا العلمية العملية التي يجب ان تبتـدئ منذ الساعة .

الادب الخيالي : كمالي لا محل له في حياة امة منحطة علماً واقتصاداً واخلاقاً . وانشغالها به بوقت لم تزل فيـه تلميذة في مدرسة الحياة ربما يسبب الى سقوطها عند الامتحان .

يجب ان ينبغ فينا كتاب في العلم والاجتماع قبل الشعر والخيـال . و يجب ان يقرأ الشعب كتب الحقائق العلمية والعبر الاجتماعية قبل السفسطات والخياليات — هل انتم سامعون ؟

٥

نظرات شاب

اقل ما في اطلاق حرية الفكر
والقول تربية الطبع على الشجاعة
والصدق وبئس الناس اذا قسروا
على الجبن والكذب .

(شبلي شميل)

١٥ كانون الثاني ١٩٢٠

زرت صديقاً لي من اصدقائي الكثيرين — وما اقلهم في الحقيقة — فوجدت عنده شاباً عليه مسحة غربية ، كان قد قدم حديثاً من اوربا .

و بعد ان عرفه بي وعرفني به ، سماه لي قائلاً : (ح . ر)

قلت : سمعت بهذا الاسم ، ولقد كنت اعلم عنه انه كان في طلب العلم باوربا ، على اني — مع ذلك — لا اعلم سبب قدومه ؟

فاجابني الشاب قائلاً : السبب واضح ... الحرب لازالت

قائمة على قدم وساق ، وان كان الظاهر لا يدل عليها !!! وكان بالطبع غير مستهسن بقائنا في عاصمة الالمان ، وهم الآن في عاصفة جنونية جديدة ...

***

بعد برهة وجيزة كان كل منا يحاور صديقاً الى جانبه ، وبينما انا في تحاوري مع احدهم ، اذ سمعت (ح . ر) يتكلم بصوت عال فانصت فسمعت آخر جملة من كلامه .

قال : « كل شعور يأتي من الدماغ الى الحواس فهو كاذب ، وكل حس يصدر من الحواس الى الدماغ : حس صادق » .

سمعت ذلك فقلت في نفسي انها لكلمة ناضجة ، و يظهر انه نجح في ذهابه الى تلك الديار .

وقد قاطع افكاري رفيقي الذي كنت احادثه فعدت الى مجرى حديثنا السابق . وعما قليل تغير نوع الكلام بيننا اذ دخل بطور عام جلة يبحث عن انحطاطنا واسباب الرقي .

فوجه احدهم سؤالاً الى « ح . ر » قائلا :

أخي ! انك زرت كثيراً من المدن والاقطار المتمدنة ، وعرفت شيئاً عن سكانها وعن رقيهم ، واظنك ستساعدني

في رأيي اذا قلت ان الغرب كمل وارتقى بواسطة القوانين والنظامات التي سنتها له حكومانه . ونحن لا نرقى الا اذا مشينا في تلك الطريق ؟

فاجابه على الفور :

هذا رأي عاطل . وانك لم تصب كبد الحقيقة به . فالغرب لم يرق بذلك . واني آسف لانك لم تسمع النغمة الجديدة التي قام لها الغرب وقعد . حيث تجد اليوم الجماعات المتركبة من الالوف المؤلفة كلها ثائرة ولسان حالها يقول :

« القوانين والنظامات التي صنت ووجدت منذ الخليقة الى هذا اليوم ، والتي أُريد بها اخضاع البشر لها قد عمل البشر ضدها تماماً ، ذلك لانها آتية من طريق الامر القامي والحكم الصارم » .

فعارضته وقلت : اذا كان الامر كذلك ، فكيف السبيل الى ايجاد امة جديدة لنا راقية ؟

فنظر اليّ هنيهة ثم قال : أترضى يا اخي ان تبني لك قصراً في مستنقع ؟ بالطبع لا ... اذن كيف ترضى ان

نشيد اركان امة جديدة وسط محيط ملؤه الخرافات والعادات السقيمة ؟

قلت : الآن فهمت ما قصدت وما رميت اليه ، الا اننا سائرون رويداً رويداً نحو هذه الغاية . ونحن لاشك لا نصلح لنا في مثل هذه الظروف الا طريقة الاعتدال .

فقهقه ضاحكاً ثم قال : هنا ، هنا بيت القصيد ! هذا هو الهدف الذي ارجو ان اصيبه .. اخوني ضللتم الطريق السوي .. لا اعتدال هناك ابداً اما عندكم (فالافراط محرم والتفريط حرمان والاعتدال مصيبة عظمى تحسبونها سعادة ..)

قال ذلك وباسرع من لمح البصر قام فودعنا وخرج وقد تركنا ورائه مفكرين ...

***

مضت ثلاثة ايام وفي اليوم الرابع وانا جالس في منتزه (جسر مود) تذكرت تلك المسامرة التي حدثت بيننا وقد قرأت الساعة في احدى الصحف هذه الكلمات :

١ — كم سجد الانسان لكلمات حسبها آتية من مقام مقدس وما هي في الحقيقة الا صدى هذيانه في حال ضعفه .

٢ — لايسقط الانسان بالنسبة الى عمله ولكن بالنسبة الى اعتقاده انه يأتي عملاً منكراً او امراً فريا .

٣ — .....

ولم اقرأ الكلمة الثالثة بل تجاوزت حالاً الى الذيل لارى التوقيع فقرأت : (ح . ر)

والآن زال العجب اذ عرفت مصدر هذه الكلمات ، وهو المفكر الوقاد فكر الشرقي المتجدد . ولكن مع الاسف اني اعلم حق العلم ان الناس سوف يقرأونها ثم ليسخرون منها ومن كاتبها و يضحكون !!